

## تقديم

### وهران: مدينة من الجزائر

جعل من وهران المدينة الثانية في الجزائر لحظة التقاء لمختلف التخصصات المهتمة بالقضايا العمرانية و الحضرية قد تجسدت بفضل إسهامات المهندسين المعماريين، في نهاية المطاف، و بفضل المتخصصين في الجغرافيا، علماء الاجتماع والمؤرخين وكذلك اللسانيين وبخاصة المتخصصين في الدراسات الإسبانية الذين غطوا مرحلة لا يمكن فصلها عن تاريخ مدينة وهران.

ترتبط المرحلة الإسبانية التي مرت بها المدينة فيما بين القرن السادس عشر والثامن عشر بمختلف العلاقات القائمة بين البلدين بانعكاساتها على المجتمع آنذاك. فيما يخص الفترة الحالية، نجد أن الاهتمامات تركز على المسائل المتعلقة بالتوسع المجالي وبالتغييرات العميقة التي طرأت خلال العشرين سنة الأخيرة والتي طبعت الضاحية. وكما تظهر قبل ذلك، الفترة التركية، والتي بلا شك الفترة الأقل دراسة في هذا العدد، من خلال الذكريات التي تمجد بعض الأسماء اللامعة التي كانت تملك علاقة قوية بالثقافة، بينما تبرز بعض الأسماء في الفترة الاستعمارية الفرنسية، بصفتها تحرض على الحرب. أما فيما يخص الفترة الاستعمارية الفرنسية التي تتعلق بإشكاليات إنتاج الشكل الحضري فإنها تتقدم على أساس ملاحظة ومعاينة المسارات التي ترمي إلى تحديد الإنقطاعات أو الاستمرارية أو إلى تقدير مضامين التحولات العمرانية والحضرية. ويجد جون بيار فري على سبيل المثال مدينة وهران ميدانا خصبا للتحليل الملائم لأجل إنجاز التمييز التالي:

”يمثل التاريخ العمراني حصرا شيئا، بينما يمثل تاريخ الهندسة العمرانية شيئا آخرًا.“ و عليه يقوم هذا الباحث بالتنقيب في الفترة الممتدة من سنة 1931 إلى سنة 1936 من خلال الأرشيف.

وتعتبر هذه الفترة قصيرة بالنظر إلى الفترة الاستعمارية الفرنسية الطويلة، لكنها أثرت بشكل كبير في تكوين المدينة من خلال مخططات التهيئة والتجميل

والتوسيع الشهيرة. وتكشف هذه القراءة في ذات الوقت عن جوانب الاختلافية الثقافية لأحياء مدينة وهران.

وعلى الرغم مما توحى به هذه القراءة من أحكام مسبقة، تبدو أنها مجبرة على التراجع بالنظر إلى المنطق الذي يتحكم في تنظيم القطع الأرضية وتجزئتها وكذلك بحكم القوانين التي خصت برامج البناء بأشكال متنوعة الأبعاد من أجل الحفاظ على النظافة. هذا ما يتجلى من عملية تأويل للوثائق التي كانت بحوزة ريني دانجي وقاسطون باردي، رجلين طبعاً المدينة في تلك الفترة، وإلى جانبهما يمكن ذكر ريمون وبول دانجي، وولف، أميل كايلا، ريني ليسبيس...

وفي سياق تفسير عملية إنتاج المدينة نفسه، يسعى صادق بن قادة، من خلال إقامة العلاقة مع الإرث الإسباني، بذكر الشخصيات السابقة لهؤلاء وهي هنري ليون فاي، دوريان، ليفيت، بيزيرات، أوسكار ماك كارثي، بيليسي وآخرون، ويبين المؤلف الكيفية التي اعتمدها المهندسون الفرنسيون في استراتيجياتهم لفهم الوثائق الإسبانية لأجل تطوير المعارف التقنية المستعملة خلال الأربعين سنة الأولى من احتلال مدينة وهران.

كما يدلنا نوع آخر من المواقف التي تحدد تاريخ مدينة وهران، وهي مواقف أكثر شعرية، إذ تعود بنا إلى الأجواء المضطربة التي تحكمت في الفترة الانتقالية المصادفة لنهاية الاحتلال التركي ولما قبل بداية الاحتلال الفرنسي. هذه المواقف المدروسة من قبل أحمد أمين دلاي، يمثلها هنا الشيخ محمد بلقندوز القادري التيجاني، ضحية القمع الذي مارسه عليه آخر باي مدينة وهران. وتذكر هذه الأشعار الملحونة للشاعر شارف بن تكوك والمخلدة للشيخ، بضرورة الاهتمام بهذه الفترة التاريخية التي هي في حاجة ماسة إلى ذلك. وفي الإطار نفسه، أي الوقوف عند ذكر مناقب شخصيات مدينة وهران، يسرد عبد القادر خليفي، المراحل اللامعة لحياة الشيخ بولحبال والتي يمكن التعرف عليها بالرجوع إلى مؤلفاته. أما فيما يخص الباحث محمد بن معمر، فإن الإسمين التاليين لكل أحمد بن علي عايشي بن عبد الرحمان السكيردي وحبيب عبد المالك، والذي يقدمهما من خلال ما يمكن اعتباره ذا أهمية كبرى للمعماريين أي وصف دقيق لمدينة وهران في التسعينيات من القرن الماضي، و نتمنى أن تجد هذه الأسماء الشهيرة في المستقبل مكانتها إلى جانب سرفانتيس الذي يقوم أحمد أبي عياد بعرض لكل ممارساته ونشاطاته النبيلة التي تعكس فنا معيناً في العيش.

ويبرز هذا الانشغال حول فن العيش لدى توفيق قروج في تساؤله حول أسباب الابتدال الواضح والبارز لمدينة وهران منذ ثمانينيات القرن الماضي. ودائما في إطار معاينة مسارات إنشاء وتكوين الأشكال المعمارية والحضرية، يتوصل قروج إلى أن هذه الفترة قد تميزت بنوع خاص من النكوص والتراجع، وببرهن على ما يسعى إليه من خلال إقامة موازنة مع الليبرالية المتطرفة التي وضعت إجراءات خاصة لاستغلال السوق ومع ضعف إمكانيات التكيف الخلاق.

وبهدف إبراز انعكاسات هذا المنتج، يسعى لفهم المنطق المسيطر على كيفية بنية أنسجة المجال المركزي ثم ما يبرز منها في العشريتين الأخيرتين. وبهذا يكشف الباحث على أن منطق اللاضبط الذي، بتكريسه، قد قضى على كل مستويات التعقيد والاختلافية التي كانت تميز إنتاج الشكل الحضري الأول.

يضمن هذان المفهومان، أي التعقيد والاختلافية، المرتبطتان بالنظام العمراني والحضري، حسب المؤلف، للمدينة "وظيفة هي من أهم وظائفها: وهي كون المدينة عملا فنيا جماعيا يترجم الثقافة والقدرة على العيش معا".

ومن جانبها تحاول عمارة بكوش التعرض، وبشكل تركيبى، إلى بعض الفترات التي عاشتها مدينة وهران من خلال الصور المستمدة من مختلف المراحل، فبالإضافة إلى ذكريات الكولون القدامى حول مدينتهم، تعرض هذه الصور مساهمة الفنانين الذين عرفوا أوضاعا جد صعبة في الجزائر المقاومة قبل وبعد الاستقلال.

كانت فترة السبعينيات تمثل فترة التعاون التقني والتغيير البارز للمشهد العمراني. لكن وبعد تأمل عميق، أصبحت هذه الفترة هدفا للعديد من الانتقادات وبخاصة فيما يتعلق بوظيفة الهندسة المعمارية في بناء الهوية الثقافية الجزائرية. وتمثل الصعوبات الآتية وربما الأكثر تعقيدا، التي تواجهها المدينة يوميا لأجل الاستجابة للحاجات المتجددة لمجتمع مطبوع بحركية دائمة. هذا ما يوضحه ويبرزه بشكل دقيق عمل مجموعة البحث التي تشتغل على إشكاليات الاختلافات السوسيو-مجالية، إذ يتوجه كل من عابد بن جليد، محمد حديد، عبد الله مساهل وسيدي محمد طراش للأوضاع الراهنة، من خلال جمع أفكارهم ونتائج تحقيقاتهم التي قاموا بها حول المواقع المختلفة بضواحي مدينة وهران للوصول إلى نتائج مشتركة. وقد اعتمد أعضاء مجموعة البحث على الأرقام لتقويم

السرعة التي توسعت بها المنطقة المحيطة بالمدينة، وقد أخذوا بعين الاعتبار المساحات المبنية والضغط المتنامي للعامل الديموغرافي.

وفي هذا الصدد تخبر معالجة المعطيات المسجلة عن سلوك الفاعليات تجاه المسألة العقارية، و عن دوافع تنقل العائلات كما تخبر عن مستويات تدخل وفعالية الهيئات المختلفة والسكان في حل هذه المعضلة. وحول التساؤل المتعلق بمعرفة وجود اختلافية سوسيو- مجالية مرتبطة بالمجال المدروس خلال ربع قرن، فقد تبين واستخلص على أنه تم إنتاج "... اختلافية فيزيائية أولا، ثم مورفولوجية ثانيا... أما فيما يخص الاختلافية الاجتماعية... التي هي بطبيعة الحال واضحة" فإنها تحتاج إلى تمييز دقيق بالنظر إلى عدد الصفقات العقارية الرسمية وغير الرسمية، وإلى إلحاح... السلطة المركزية التي ترمي إلى تحبيذ الاختلاط بين مختلف الفئات الاجتماعية...". وتحاول فاطمة طهراوي من خلال تبنيها لأسلوب منهجي مماثل أن تدرس حالة خاصة والمتمثلة في حي سي صالح (البلاتير قديما، إذ تركز على البيئة التي تميز البناء اللاقانوني وعلى ميكانيزمات تنظيمه. وباعتباره بناء عفويا تم إنجازه في منطقة غير مؤهلة، فإنه يطرح مشاكل خطيرة متعلقة بالأمن والتهيئة، و ذلك على الرغم من كل محاولات إعادة الهيكلة التي تم اعتمادها على المستوى المؤسساتي.

كما تطرق بدر الدين يوسف وبصفة شاملة، للمشكلة الكبيرة المتمثلة في السير الحالي للنقل الجماعي ولخصوصته. ومن بين الصعوبات الكثيرة التي يعرفها هذا القطاع من العمران الإجرائي، فإنه يكشف عن نقائص فادحة في وضع شروط الخصوصية هذا من جهة، ومن جهة أخرى يبرز أهمية الاحتياجات التي تنتظر الاستجابة في زمن قصير جدا، و يبين عابد بن جليد من جهته، كيفية اتخاذ القرارات السياسية على المستوى المركزي المتعلقة بالتهيئة العمرانية و التي تترجم بمجموعة من الممارسات و النشاطات المحاكية للنموذج العاصمي و لكن بتخلف مقدر ببعض السنوات. فملاحظات هذا المؤلف حول أشكال العلاقات بين السلط العمومية و العاصمة، تدفع بمعاينة الواقع المحلي من أجل التوصل إلى حلول مناسبة و ملائمة لمشاكل المدينة.

ويقوم مؤرخو الفترة الإسبانية لمدينة وهران من جانبهم، بالتركيز على مميزات مجتمع تلك المرحلة، ويتبين لدى بياثريس الونزو أسيرو، من خلال قدرته على الإبقاء على تعايش متعدد الثقافات، وهو أمر يجب الانتباه إليه

وتقديره حق قدره بخاصة ونحن نعرف أن التقارب بين الديانات الثلاثة كان مرفوضا من قبل إسبانيا آنذاك. وتحدد دراسة أنجيل دي بونيس إبارا، مدينة وهران في إطار حقل تحليل جيوسراتيجي حيث كان المغرب المركزي منطقة صراع بين الإسبان والعثمانيين. وفي هذا الظرف بالذات، تبرز وهران باعتبارها مدينة حدودية من منطلق أن المجتمع الذي يقطن بهذا النوع من المدن هو أكثر المجتمعات تقبلا للتغييرات، ولهذا تعرفنا مساهمة عصمت تركي حساين على مرحلة هامة من تاريخ وهران في القرن الثامن عشر، إذ يعتمد هذا الباحث على دراسة العلاقات الدبلوماسية والتجارية التي قامت آنذاك بين البلدين. وينصب استقصاء عبد القادر بوباية على هجرة العلماء من الأندلس نحو وهران، ويحاول من خلال دراسته تحديد المؤثرات في الحياة الثقافية للمدينة.

وعلى مستوى الممارسات اللغوية التي تميز حالة مدينة وهران، نجد مريم موساوي التي تبني كل تحليلها على إشكالية الدخيل بين الحضارات، وبخاصة اللهجة الإسبانية بوهران، وتأخذ على سبيل المثال كلمة طرابندو المأخوذة عن اللغة الإسبانية وهي كلمة متأصلة وتوليدية تتضمن حقا كاملا من المعاني ولا يمكن حصرها في المسألة الاصطلاحية فقط.

ولكن ماذا تعني في الواقع كلمة وهران؟ ومن أين أنت؟ ويدعوننا فريد بمرضان للإجابة عن هذين السؤالين بالبحث في حقل التسمية المدمج. إذ يحاول المؤلف الإتيان ببعض التوضيحات باتباع المسار الكرونولوجي لتسمية الأماكن التي تتشابه مع وهران (أوران) مثل وادهران، ووهران. وكذلك التنقيب في المضامين المختلفة للتراث، وللاستعمالات وكتابات الاسم، ومختلف التأويلات والأوصاف اللسانية... وهي توضيحات حول المنطق الداخلي للتسمية، مثلما تفتح آفاق جديدة للعمل، وتدفع صعوبة الحسم في مثل هذه القضايا بالنقاش إلى أبعد مداه، وتوحي بدخول ميادينه المتشعبة.

## عمارة بكوش

ترجمة محمد داود